والتاء قال سيبويه قلت للخليل فلم لا يكون الأخريان بمنزلة الأولى فقال إنما أقسم بهذه الأشياء على شيء ولو كان انقضى
قسمه بالأول على شيء لجاز أن يستعمل كلامًا آخر فيكون كقولك بالله لأفعلن بالله لأخرجن ولا يقوى أن تقول وحقك وحق
زيد لأفعلن والواو الأخيرة واو قسم لا يجوز إلا مستكرهًا قال وتقول وحياتي ثم حياتك لأفعلن فثم ههنا بمنزلة الواو هذا
والخليل في الحرف بصدده إلى أن يجعل الواو للعطف لمخالفة الثاني الأول في الإعراب فإن قلت فقدرها مجرورة بإضمار
الباء القسمية لا بحذفها فقد جاء عنهم الله لأفعلن مجرورًا ونظيره قولهم لاه أبوك غير أنها فتحت في موضع الجر لكونها غير مصروفة
واجعل الواو للعطف حتى يستتب لك المصير إلى ما أشرت إليه قلت هذا لا يبعد عن الصواب ويعضده ما
روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال أقسم الله بهذه الحروف فإن قلت فما وجه قراءة بعضهم صادِ وقافِ بالكسر
قلت وجهها ما ذكرت من التحريك لالتقاء الساكنين والذي يبسط من عذر المحرك أن الوقف لما استمر بهذه
الأسامي شاكلت لذلك ما اجتمع في آخره ساكنان من المبنيات فعوملت تارة معاملة الآن وأخرى معاملة
هؤلاء فإن قلت هل تسوغ لي في المحكية مثل ما سوغت لي في المعربة من إرادة معنى القسم قلت لا عليك في ذلك
وأن تقدر حرف القسم مضمرًا في نحو قوله عز وجل حم والكتاب المبين كأنه قيل أقسم بهذه السورة وبالكتاب
المبين إنا جعلناه وأما قوله صلى الله عليه وسلم حم لا ينصرون فيصلح أن يقضى له بالجر والنصب جميعًا على حذف الجار
وإضماره فإن قلت فما معنى تسمية السور بهذه الألفاظ خاصة قلت كأن المعنى في ذلك الإشعار بأن الفرقان
ليس إلا كلمًا عربية معروفة التركيب من مسميات هذه الألفاظ كما قال عز من قائل قرآنًا عربيًا فإن قلت فما بالها
مكتوبة في المصحف على صور الحروف أنفسها لا على صور أساميها قلت لأن الكلم لما كانت مركبة من ذوات الحروف
واستمرت العادة متى تهجيت ومتى قيل للكاتب اكتب كيت وكيت أن يلفظ بالأسماء وتقع في الكتابة الحروف
أنفسها عمل على تلك الشاكلة المألوفة في كتابة هذه الفواتح وأيضًا فإن شهرة أمرها وإقامة ألسن الأسود والأحمر
لها وأن اللافظ بها غير متهجاة لا يحلى بطائل منها وأن بعضها مفرد لا يخطر ببال غير ما هو عليه من مورده أمنت وقوع
اللبس فيها وقد اتفقت في خط المصحف أشياء خارجة عن القياسات التي بني عليها علم الخط والهجاء ثم ما عاد
ذلك بضير ولا نقصان لاستقامة اللفظ وبقاء الحفظ وكان اتباع خط المصحف سنة لا تخالف قال عبد الله
بن درستويه في كتابه المترجم بكتاب الكتاب المتمم في الخط والهجاء خطان لا يقاسان خط المصحف لأنه سنة وخط
العروض لأنه يثبت فيه ما أثبته اللفظ ويسقط عنه ما أسقطه والوجه الثاني أن يكون ورود هذه الأسماء هكذا مسرودة
على نمط التعديد كالإيقاظ وقرع العصا لمن تحدى بالقرآن وبغرابة نظمه وكالتحريك للنظر في أن هذا المتلو عليهم
وقد عجزوا عنه عن آخرهم كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم ليؤديهم النظر إلى أن يستيقنوا أن لم تتساقط
مقدرتهم دونه ولم تظهر معجزتهم عن أن يأتوا بمثله بعد المراجعات المتطاولة وهم أمراء الكلام وزعماء الحوار وهم
الحراص على التساجل في اقتضاب الخطب والمتهالكون على الافتنان في القصيد والرجز ولم يبلغ من الجزالة وحسن
النظم المبالغ التي بزت بلاغة كل ناطق وشقت غبار كل سابق ولم يتجاوز الحد الخارج من قوى الفصحاء ولم يقع
وراء مطامح أعين البصراء إلا لأنه ليس بكلام البشر وأنه كلام خالق القوى والقدر وهذا القول من القوة والخلاقة بالقبول
بمنزل ولناصر على الأول أن يقول إن القرآن إنما نزل بلسان العرب مصبوبًا في أساليبهم واستعمالاتهم والعرب لم تتجاوز
ما سموا به مجموع اسمين ولم يسم أحد منهم بمجموع ثلاثة أسماء وأربعة وخمسة والقول بأنها أسماء السور حقيقة يخرج إلى ما ليس في
لغة العرب ويؤدي أيضًا إلى صيرورة الاسم والمسمى واحدًا فإن اعترضت عليه بأنه قول مقول على وجه الدهر وأنه
لا سبيل إلى رده أجابك بأن له محملًا سوى ما يذهب إليه وأنه نظير قول الناس فلان يروي قفا نبك وعفت الديار وتقول
الرجل لصاحبه ما قرأت فيقول الحمد لله وبراءة من الله ورسوله ويوصيكم الله في أولادكم والله نور السموات والأرض وليست

هذ

هذه الجمل بأساميها هذه القصائد وهذه السور والآي وإنما تعني رواية القصيدة التي ذاك استهلالها وتلاوة السورة
أو الآية التي تلك فاتحتها فلما جرى الكلام على أسلوب من يقصد التسمية واستفيد منه ما يستفاد من التسمية قالوا ذاك
على سبيل المجاز دون الحقيقة وللمجيب عن الاعتراض على الوجه الأول أن يقول التسمية بثلاثة أسماء فصاعدًا مستكره لعمري
وخروج عن كلام العرب ولكن إذا جعلت اسمًا واحدًا على طريقة حضرموت فأما غير مركبة منثورة نثر أسماء العدد فلا استنكار
فيها لأنها من باب التسمية بما حقه أن يحكى حكاية كما سموا بتأبط شرًا وبرق نحره وشاب قرناها وكما لو سمي بزيد منطلق
أو ببيت شعر وناهيك بتسوية سيبويه بين التسمية بالجملة والبيت من الشعر وبين التسمية بطائفة من أسماء حروف المعجم
دلالة قاطعة على صحة ذلك وأما تسمية السورة كلها بفاتحتها فليست بتصيير الاسم والمسمى واحدًا لأنها تسمية
مؤلف بمفرد والمؤلف غير المفرد ألا ترى أنهم جعلوا اسم الحرف مؤلفًا منه ومن حرفين مضمومين إليه كقولهم صاد فلم يكن
من جعل الاسم والمسمى واحدًا حيث كان الاسم مؤلفًا والمسمى مفردًا والوجه الثالث أن ورود السور مصدرة بذلك
ليكون أول ما يقرع الأسماع مستقلًا بوجه من الإغراب وتقدمة من دلائل الإعجاز وذلك أن النطق بالحروف أنفسها كانت
العرب فيه مستوية الأقدام الأميون منهم وأهل الكتاب بخلاف النطق بأسامي الحروف فإنه كان مختصًا
بمن خط وقرأ وخالط أهل الكتاب وتعلم منهم وكان مستغربًا مستبعدًا من الأمي التكلم بها استبعاد الخط والتلاوة
كما قال عز وجل وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذًا لارتاب المبطلون فكان حكم النطق
بذلك مع اشتهار أنه لم يكن ممن اقتبس شيئًا من أهله حكم الأقاصيص المذكورة في القرآن التي لم تكن قريش
ومن دان بدينها في شيء من الإحاطة بها في أن ذلك حاصل له من جهة الوحي وشاهد بصحة نبوته وبمنزلة
أن يتكلم بالرطانة من غير أن يسمعها من أحد واعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله عز سلطانه في
الفواتح من هذه الأسماء وجدتها نصف أسامي حروف المعجم أربعة عشر سواء وهي الألف واللام والميم
والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون في تسع
وعشرين سورة على عدد حروف المعجم ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف
أجناس الحروف بيان ذلك أن فيها من المهموسة نصفها الصاد والكاف والهاء والسين والحاء ومن
المجهورة نصفها الألف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والياء والنون ومن الشديدة نصفها
الألف والكاف والطاء والقاف ~~والكاف والطاء والقاف~~ ومن الرخوة نصفها اللام والميم والراء والصاد
والهاء والعين والسين والحاء والياء والنون ومن المطبقة نصفها الصاد والطاء ومن المنفتحة نصفها
الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون ومن
المستعلية نصفها القاف والصاد والطاء ومن المنخفضة نصفها الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء
والياء والعين والسين والحاء والنون ومن حروف القلقلة نصفها القاف والطاء ثم إذا استقريت الكلم
وتراكيبها رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها فسبحان الذي
دقت في كل شيء حكمته وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته
فكأن الله عز اسمه عدد على العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم إشارة إلى ما ذكرت من التبكيت لهم
وإلزام الحجة إياهم ومما يدل على أنه تعمد بالذكر من حروف المعجم أكثرها وقوعًا في تراكيب الكلم أن الألف واللام
لما تكاثر وقوعهما فيها جاءتا في معظم هذه الفواتح مكررتين وهي فواتح البقرة وآل عمران والروم والعنكبوت
ولقمان والسجدة والأعراف والرعد ويونس وإبراهيم وهود ويوسف والحجر فإن قلت فهلا عددت
بأجمعها في أول القرآن وما لها جاءت متفرقة على السور قلت لأن إعادة التنبيه على أن المتحدى به مؤلف

Copyright © King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)